عصران فى دار

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

هى أسرة واحدة تعيش تحت سقف واحد ، ولكن عصور أفرادها متباعدة ، وثقافاتهم متعددة متفاوتة ، والحضارات التى يمثلونها لا تنفك تتصادم وتحترب فى دارهم . وقد عرفت بعضهم فى لبنان وبقيتهم فى مصر ، وكنت أتمشى يوماً قبل النروب فى طريق « ضهور الشوير » ، والشوير « ضيعة » كما يسمونها ، أو قرية فى واد يشرف عليه الجبل ، فهذا هو « الضهور » أو « الظهور » ، قلت الى مكان هناك يسمونه « قهوة الحاج الياس » وهى قاعة بين بساتين فاكهة وزهر ، فلمحت فى طريق مَنْ ظننتها واحدة ممن عرفتهن هناك ، فخفت الخطى اليها ، فاذا هى فتاة لاعهد لى بها ، وليس بنظرى قِصر ، ولكنى كنت مطفلاً ، وكانت الشمس قد اصفرت وضعف ضوؤها ، وكان الشجر يحجب وجهها عنى — أعنى الفتاة لا الشمس — فلى العذر إذا أخطأت . وعلى أنه خطأ لم يسؤ وقعه فى نفسى . بهذا أعترف . وكانت جالسة ترسم فأغراني هذا بها ، فدنوت منها على أطراف أصابعى ، ثم وقفت أتأملها — من وراء ظهرها — وهى مقبلة على اللوح . فلما طال ذلك علىّ ، وهى لا تلتفت وراءها ، تنحنحت ، فأدارت وجهها بسرعة وقالت : « أوه ! » ولم يكن فى وجهها لا ابتسام ولا دهشة ، كأنما كان من المألوف عندها أن تسمع الناس يتنحنحون وراءها وهى ترسم ! .

فقلت وقد أحسست أن فى الفتيات عسراً :

« هل أزعجتك ؟ »

فقالت وهى ماضية فى رسمها وغير ناظرة إلىّ :

« أزعجتنى ؟ ؟ هل سمعتك تقول إنك أزعجتنى ؟ »

وكانت لهجتها واشية باحتقار يحول الأدب دون ظهوره على وجهها ، أو لعل الأصح أن أقول إن فى اللهجة تهكما خفيفاً حملته على محمل الاحتقار ، فقدتها عليها — فى سرى — غير أنى لم أظهر ذلك لها واكتفيت بأن أقول :

« هذا ما كنت أخشى — فالحمد لله ! »

فمضت فى تخطيطها على اللوح وقالت : « إذا كنت تريد أن تتكلم فاجلس » . فكانت هذه صدمة ثانية . فتلجلجت قليلاً وقلت « أ ... أ ... أجلس ؟ » فقالت وهى مكبة على اللوح « آه .. معذرة . . ثيابك بيضاء نظيفة ، والأرض بليلة . . . مفهوم »

فاجترأت وقلت : « هل تريدين أن تدعينى الى الجلوس ؟. »

فقالت : « وماذا أصنع بك جالسا أو واقفاً ؟ معذرة ! إن غرورك هو الذى أجرى لسانى بهذا الكلام »

فسألتها وأنا مبهوت : « غرورى ؟ »

فقالت بلا اضطراب : « أعنى غرور الرجال . . . وكنت تستطيع أن تدرك قصدى ولا تحوجنى الى الايضاح »

وكنت فى أثناء هذا الحوار لم أبرح مكانى وراءها ، فتحولت حتى صرت أمامها وقلت وفى صوتى نبرة غضب مكظوم :

« هل تستطيعين أن تدعى أن بينى وبينك ثأرا قديماً ؟ »

فأدهشنى أنها أجابت ببساطة ومن غير أن ترفع وجهها الىّ :

« ثأر ؟ أوه لا ! . ولكن ألا ترى أن أمثالك لا خير فيهم لمثلى »

فقلت : « معذرة فانى غير فاهم ! . »

قالت : « بالطبع ! ولست وحدك الذى لا يفهم . . . كلكم هكذا . . . لأنكم تفكرون بعقول معطلة . . . أعنى أن أهواءكم تغلبكم وتدفع عقولكم فى مجراها ، وتمنعكم أن تفكروا فى حاجات غيركم مثل تفكيركم فى حاجاتكم . قد يبدو هذا القول غريباً من فتاة مصرية ، لأن الفتاة فى نظركم ليست سوى مطية ... لا تستغرب هذه الصراحة ، فلستم وحدكم كل من تعلموا وذهبوا الى أوربا ورأوا بعيونهم وفكروا بعقولهم ... ماعلينا من هذا ... نعم الفتاة ليست عندكم سوى مطية ... لا تجادل من فضلك ... لا تحاول أن تكذب ... كلا ... لا تقاطعنى ... إنك هنا لتتحكك بى ... هـــذا واضح ... بالطبع ! دعنى أتم كلامى ، لقد كنت أقول حين همتَ بمقاطعتى إنكم معشر الرجال تعتقدون أن الفتاة مطية ، وإنها لكذلك ؛ ولكنها غير ذلك أيضاً ... إعترف بصراحة ... هل خطر لك مرة واحدة أن الفتاة أكثر من مطية ؟! »

فخجلت لأنى لم أكن أنتظر أن أسمع هذه المحاضرة ، وأورثتنى الفاجأة اضطراباً فقلت :

« ولكن هل من موجب لهذا الكلام ؟ ؟ إني . . . »

فقاطعتني قائلة « نعم فانك ما جئت إلى هنا إلا وفى أملك أن تقضي دقائق لذيذة مع فتاة ترجو أن تؤاتيك وأن تنيلك دقائق أخرى ألذ منها وأعذب »

فهممت أن أقاطعها ولكنها أومأت إلى فسكت ، واضطجعت هي على الكرسي وقالت :

« لا تكابر . . . واسمع مني ، ولا تعجب إلا إذا كنتَ غبياً . . لامانع عندى ألبتة أن أمنحك الدقائق اللذيذة لو كنت تستحقها فى نظرى . . فانى أنا أيضاً أطلب لنفسى دقائق لذيذة وأشتهي أن أتمتع بحياتى وأفوز بنصيبي من لذات الدنيا ، ولكنّ هناك لذائذ أخرى تعدل هذه وتستبد بالنفس وتغلبها على أهوائها الأخرى ... هذا التصوير مثلاً هو مهنة لأكل العيش إلى حد ما ، ولكنه أيضاً فن يزاول لذاته وبغض النظر عن النافع المادية . . إني حرة . . فقيرة ، نعم ، ولكني أجد الكفاية ، وقد استطعت أن أتعلم أرقى تعليم تسمح به مواردى ، والباقى أحصله باجتهادى .. درست التصوير فى انجلترا ثلاث سنوات بينما كنت مبعوثة إليها لأدرس شيئاً آخر ، ولكني لا أتكسب به . نعم أبيع بعض صورى ، ولكنى أستخدم ثمنها فى إتقان فني . . فى تجويد أدائه . . لقد بعدت عن الموضوع جداً . . . على الأقل فى نظرك . . ولكن هذا الشرح كان لازماً لأمثالك حتى يستطيع أن يجتنب إساءة الظن حين أسأله . . هل تستطيع أن تكون أنموذجاً لصورة ؟ »

فصحت « إيه ؟ أنمو . . . »

قالت مقاطعة « نعم ، أنموذج لصورة . . إن جسمك ليس معتدلاً ، وقوامك . . . غير حسن . . وهذا ليس غزلاً مقلوباً من فضلك .. ولكن لو أمكن أن أرسمك وأنت عار .. ولكن بالطبع لا تستطيع ... كلا ... لا تستطيع ... لا فائدة ... خسارة ... إن فى ذهني صورة تصلح لها ، ولكن الحياء الكاذب .. كلا .. لا فائدة »

فكدت أجن من جرأة هذه الفتاة ، ثم تصورت نفسى واقفاً أمامها — على رجل واحدة ! . وأنا كما خلقني الله فقهقهت ، فصعّدت إلىّ طرفها مستغربة مستفهمة ، فلم أكتمها ما دار فى نفسى وتمثل لخاطرى ، ثم تعارفنا .

* * *

وفى مصر رأيت أباها ، وهو شيخ فى السبعين من عمره ، تخرج فى دار العلوم وزاول التدريس حتى أقعده الكبر ، ولكنه لا يزال على ارتفاع سنه نشيطاً . ومن شذوذه أنه لا يقنع بأن ينفى العامية من كلامه ، بل يفرض الكلام بالفصحى حتى على الخدم :

كنت معه يوماً ، وكنا جالسين فى حديقة البيت ، فبصر بالخادم ، فصاح به « ليس هكذا ؟ »

فانتفض الخادم ودار حول نفسه ، وقال بلهجة الممتثل لقضاء الله فيه ولا ستبداد هذا المجنون به :

« أفندم ؟ »

قال الشيخ : « ليس هكذا »

فعاد الخادم يسأل « أفندم ؟ »

فقال الشيخ مفسراً : « أقول ليس هكذا . ارفع رأسك وافتح صدرك . ألم أنهك أن تمشى متخلعاً ؟ »

فقال الخادم معترفاً : « أيوه يا افندم ؟ »

فصاح به الشيخ : « قل نعم يا جاهل ! أو بلى »

فاستغرب الخادم وسأل بلهجة المنكر : « بلى ؟ »

قال الشيخ : « بلى »

فعاد الخادم يسأل : « بلى ؟ »

قال : « نعم بلى ! ماذا تظنني أقول ؟

قال الخادم : « بلي ! »

قال الشيخ : « إذن قلها »

فحاول الخادم أن يعيدها ولكنه نسيها فجعل يقول : « أ . . أ ... ب ... ب ... » وحك رأسه .

فأنكر الشيخ ضعف ذاكرته وقال : « نسيت بسرعة ؟ »

فتذكر الخادم وقال : « أ ... بلى »

فعاد الشيخ يصيح : « مدهش ! قل « لا » فى هذا الموضع »

فظن المسكين أن عليه أن يردد كل ما يسمع فقال : « لا فى هذا الموضع »

فضجر الشيخ وصاح : « ماذا كنت قبل أن تجيء إلى هنا ؟ بيغاء ؟ »

فكرّ الخادم مسرعاً إلى الأولى استرضاء للشيخ وقال « أ ... أ ... بلى »

فيئس الشيخ وقال وهو ينظر إلىّ « لا فائدة ... لا فائدة ! »

نبتـــون

للأستاذ راشد رستم

في ناحية من نواحي الحديقة النسقة الواسعة، أنشأوا بحيرة صغيرة صافية، وحول هذه البحيرة الساكنة قامت الأشجار عظيمة السيقان، كثيرة الأغصان — تباعدت في الأرض جذوعها، والتقت في السماء فروعها — دوحة خضراء، نادرة المثال في هذا النوع من التنسيق والجمال، اتخذت منها الأطيار الوديعة أراجيحها اللينة، وأقامت فيها أعشاشها الآمنة.

وفي وسط هذه البحيرة الصغيرة أقاموا تمثالاً كبيراً لإله البحر الأعظم: نبتون [1] بن زُحل...

أقاموه في هذا المكان الهادئ، واقفاً يحمل في عناه صولجانه مثلث الأسنان، وعد يسراه في اطمئنان مشيراً إلى الماء الخاضع في هدوء عند قدميه، وكأنه يقول: هذا مُلكي، هذا عرشي!

* * *

(١) إله البحار. نبتون Neptune عند الرومان يقابل فوسيذ Poseidon عند اليونان

وحسب الخادم أن الكلام له فقال: «بلى.»

فصاح الشيخ. «اذهب ... اذهب ... وارم نفسك في بئر.»

فظن المسكين أنه يحسن به أن يقول شيئاً آخر فقال:

«لا في هذا الموضع»

* * *

هذه هي الأسرة — أو على الأصح، هذا هو الأب، وتلك فتاته، وهما يعيشان في بيت واحد تحت سقف واحد، ولا أدري أيشعران أم لا يشعران بما بينهما من مسافة الزمن التي تحسب بالقرون، ولكن الذي أدريه أنهما على تباعد عصريهما سعيدان. وقد ساعد على ذلك وأتاحه سعة أفق الفتاة وما تمتاز به الشيخوخة من الحلم والجنوح إلى التسامح، أو الضعف إذا شئت...

إبراهيم عبد القادر المازني

٣٠٤٢

أي نبتون! مزعزع ركن الثرى [1]

ما كنا لنجهل ملكك، أو نسلبك عرشك.

رمز لظلمات ذلك الخيال المضطرب لما رآك أجدادنا المتقدمون؛ ولذلك الرعب الآخذ بنفوسهم لما تركوك إلى برهم؛ ولذلك التعدي، وقد جهلوه منك، عند ما حاولت أن تصل إليهم بمدك؛ ولذلك الفشل، وقد تمنوه لك، لما عدت عنهم خائباً بجزرك.

على أنك لا تزال تطغى ولا ترحم، وتهشم ما تصل إليه يدك في غدك، كما كنتَ تفعل في أمسك، وإن كنت تحوي الدر، وتؤدي خيراً، فإنك لا ترى ان هذا خير وذاك در

* * *

إن هذه البحيرة الصغيرة الهادئة لا تستحق من أهل السلام وأهل الجمال، أن تقوم أنت وسطها على جزيرة لا تكاد تفي بموطئ قدميك، تقوم فيها بثقيل هيئتك، وكالح وجهك وخشن شكلك. وهنالك في المحيط الواسع جزائر عظمى، خذها مسكناً ومقيلا، فعندها تجد لخشونتك مجالاً، ولوحشيتك ميداناً، وهنالك حيث أهلها وسكانها أقرب طباعاً لما يرضيك، فتتخذهم أعواناً أو عبيداً أو خلقاً جديداً، تسخرهم فيما تشاء من إغراق وإغداق، وتراهم يرتاحون لجوارك ويحافظون على سلطانك، وهم يرون في عتوك وجبروتك حماهم الذي لولاه لكانوا في الأرض أغناماً لسباعها، أو أسلاباً لناهبها.

* * *

أيْ نبتون!

تضيع بهجة هذا المكان، وتذهب وداعة هذه البحيرة، ما دمت قائماً فيها برمزك هذا الخشن.

وكأني بصاحب المكان فظاً غليظ الفؤاد، إذ يجعل جباراً يداعب ضعيف الجناب! أي ضعف في الذوق! وأي خشونة في

(١) «مزعزع ركن الثرى» لقب من ألقاب فوسيذ، جاء في الالياذة ترجمة البستاني

وكاد العدى يحرزون الظفر — وفوسيذ فيهم يهيج الزمر

فإن مزعزع ركن الثرى — لنصرتهم بقواه انبرى

الطباع أشد من أن يقيم النسق رمزاً للخشونة الواضحة ، والقسوة المتجددة فى المكان الساكن ، ذى الروح الوديعة ، والجو الهادىء . . .

* * *

كأنى بهذا النسق ، وقد أقامك بين هدوء المكان وبهجته ، بل وقد حبسك فى هذا القفص الرطب . كأنى به يستهزىء من قوتك ، ويستنزل من شأنك ، فيقيم الرمز الثقيل فى بحيرة صغيرة ، تكاد تكون نقطة من بحرك .

* * *

أم أن هذا النسق حكيم بصير ! أراد تغليب صفاتك القاسية على ميزات المكان اللينة ، فيقول للناس بذلك ؛ وهم وقوف عند البحيرة الساكنة المستأملة — يقول : أحقاً أيها الناس أرباب العواطف ، أحقاً تشعرون بجمال هذا المكان ووداعته ، وها هو ذا تمثال طاغية يذكركم بأمواج كالجبال ، وطباع كالبحار ، ودخيلة لا أمان لها ؟ أتظنون أن طائر الرحمة والرضا ، يأوى الى القلوب ، وهو يرى رمز القسوة والجافة قائماً ماثلاً ؟

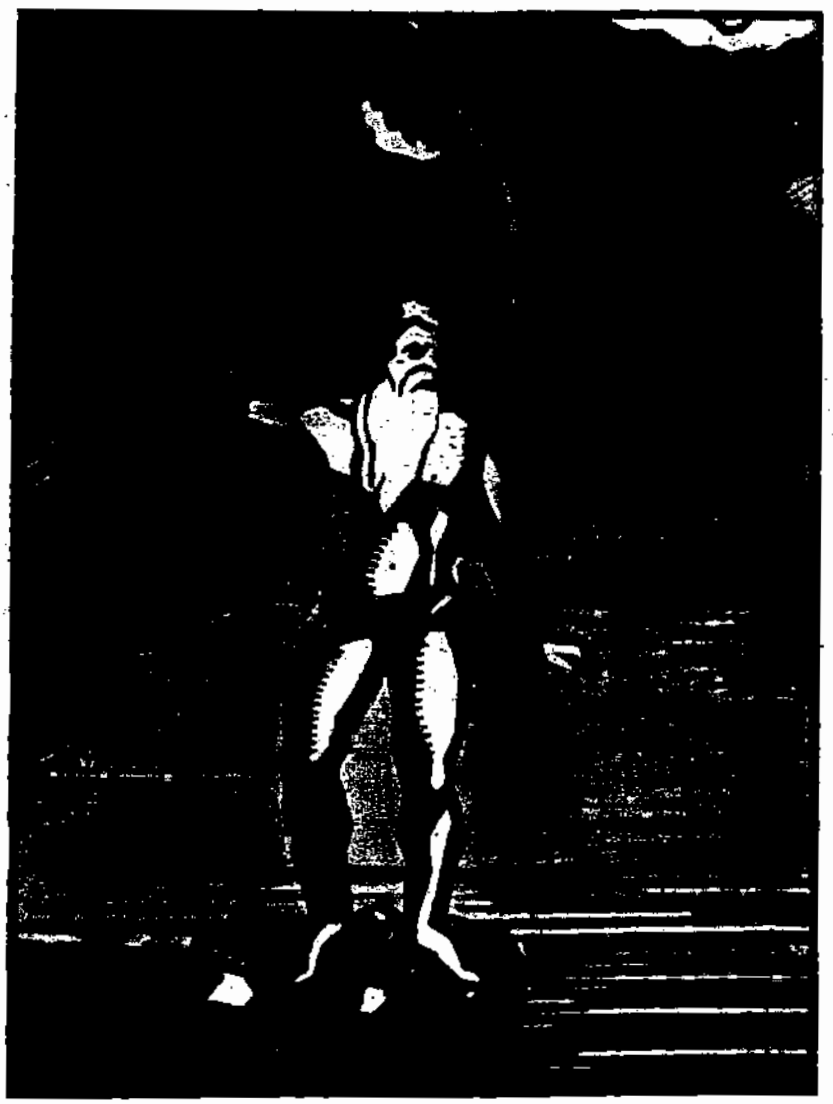

اتظنون أيها الفنانون أن فى هذا العالم جمالاً صافياً خالياً ؟ جمالا الجما . . .

* * *

لا أدرى حقيقة ما يقصد صاحب المكان ، ولكن خطأ ياسادة أن تقيموا هذا الرمز الخشن فى هذه الطبيعة الناعمة . إن من جمال النفس أن تجمع بين الماء والخضرة «والتمثال» الحسن

وإن الذى يأتى الى هذا المكان الهادىء ، لا يقيم قليلا حتى يمسه تيار قاتم من روح هذا الجبار العتيق . يشعر وسط هذا النعيم الأخضر بلفحات من جحيم الحياة القاسية .

* * *

فياحراس المكان ، وحفظة السلام ، ويا أهل الجمال ؛ أزيلوا هذا الرمز الخشن ، وردوه الى حيث تتناسق صفاته وقوة الطبيعة فتكونون قد صنعتم جميلا ، وأرضيتم أهل الخيال وأهل الحقيقة .

نبتون فى البحيرة — تصوير الأستاذ محمد رفعت

راشد رستم

« حديقة انطونيادس »
اسكندرية